من الشعراء المنسيين

السيد الحميرى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

شاعر مطبوع لا يبلغ شأوه فى فنه ، ولا يجاريه سواه فى ذلك اللون من شعره الذى تفرغ له ، فانفرد به ، بعد أن منحه همامة نفسه ، وأولاه عصارة ذهنه ، وما زال ذلك شأنه لا يعدو هذا الغرض إلى غيره من الأغراض إلا لماما ؛ حتى قوض بناؤه ، وسالت دماؤه . وإذ ذاك كفر حقه الرواة ؛ وجحد فضله المؤرخون ، فصار بعد حين من موته مغمورا ، إن عرفته بطون الأسفار نكرته صحائف الأفكار ، وإن رمقته عيون الأخبار قلته أحداق الأبصار ، فنال الدهر من ذلك الشعر الذى طالما نيل به من السابقين الأولين ، فلقد كان السيد متشيعا تشيعا مقيتا لا يقره دين ، ولا ترمقه بالرضا عين ، وما كان يبالى فى سبيل الذود عن نزعته أن يخرج على أدب الإسلام أو يقع فى الآثام والأوزار ، ولعله ورث سلاطة اللسان وخبث النفس عن جده يزيد بن زياد ابن ربيعة الحميرى ، فقد كان لسانه مفحشا وهجاؤه مقذعا ؛ هجا آل زياد بن أبى سفيان فلم يترك لهم أديما ولم يبال فى ذمهم تأثيما من أدب قويم أو دين كريم ؛ حتى استأذن عبيد الله بن زياد يزيد بن معاوية فى إهدار دمه ، ليكون عبرة غيره من أولئك الهجائين المجادعين الذين أباحوا الحرمات فاستحقوا اللعنات ولكن يزيد أبى عليه هذا ، وأباح له التنكيل به كيفما شاء ، ففر يزيد الحميرى من وجهه مستجيرا بكل عظيم ، ، فكانوا يردونه رداً حسنا اتقاء لسانه وخشية سبابه ، زاعمين له أنهم لا يمنعهم حمايته إلا أمر الخليفة ، فما كان لهم أن يجيروا على

السلطان ، وهو فى تطوافه وجولاته لا ينفك يهجو ويقذع ، فلم يسلك مسلك النابغة قبله فيعتذر ويرتجى ، ويستجير ويستعفى ، حتى يجد فى قلب عبيد الله مرحمة .

وبعد حين أمكنت الفرصة عبيد الله منه فقبض عليه وسقاه من صابه ، وأطال فى الحبش مقامه ، حتى استشفع له قومه من اليمانية فشفع له ، ومن هجائه له ولأخيه عباد قوله :

وما لاقيت من أيام وبؤس ... ولا أمر يضيق به ذراعى
ولم تك شيمتى عجزا ولؤما ... ولم أك بالمضلل فى المتاع
سوى يوم الهجين ومن يصاحب ... لئام الناس يغض على القذاع

ومنها :

إذا أودى معاوية بن حرب ... فبشر شعب فميك بانصداع
فأشهد أن أمك لم تباشر ... أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمر فيه لبس ... على عجل شديد وارتياع

ولا سبيل لنا إلى رواية الشىء الكثير من شعره لأننا بصدد حفيده أولا ، ولمغالاته وإمعانه فى السفه ثانيا ، ولكنا نحكم عليه عادلين فى حكومتنا بأنه أول أولئك الذين شرعوا ذلك المشرع الكدر من الشعر ، فدفعوا بغيرهم فى تلك المفازة الموحشة من الأدب ؛ بذكر ألفاظ الخنا والزنا ، ورمى المحصنات بالمنكرات ، وقذف الأمهات والأخوات ، فى عهد قريب من عصر الأدب الرفيع أدب الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق ، فجناية هذا الشاعر ومن نحا نحوه مزدوجة ، وجريمته ومن شايعه فى نحلته مضاعفة .

أورث يزيد بن زياد حفيده إسماعيل بن محمد ذلك الأدب الفاحش واللسان المستهتر بالسباب . والقلب السادر فى الغى ، فكان ينضح من معينه . ويفيض إناؤه

بسخينة، وليته أطلق مقوله على لداته من الشعراء والمنافسين أو أرسل إفحاشه على الأعداء من المجادعين، إذا لكانت الجريرة محتملة الوقع، هينة الإيلام للنفس، ولكنه تطاول على الخيرة الأبرار، ولم يجد من يردعه، وتسامى إلى البررة الأطهار ولم يلق من يرجمه، إذ كان يتقرب إلى الخلفاء والولاة فيمالئونه ويدارونه، ويتمدح بخلال الأمراء والأعوان فيصافونه ويتحاملونه.

ولقد كان تشيع السيد الحميرى عن عقيدة فى النفس راسخة لا تلعب بها الزعازع، وكان تحز به لآل على عن إيمان لا تنال منه الأعاصير الهوج، فلو أن التشيع عن هوى لخشى ما قد يصيبه من جنف، ولبالى ما لعله ينتظره من حيف ولكنه لم يأبه فى حبه ظلما، ولا بالى فى تحزبه ضيما، فهذا أبوه كان إباضيا (١) فحين بلغته نحلة ابنه ثار وفار وهم بقتله لولا أن أنقذه منه أحد ولاة المنصور، فلما مات أبواه ورث عنهما دارهما التى طرداه منها فى حياتهما، فلم يبك عليهما وإنما بكى فعليهما، فكان يقول فى حسرة وأسى «طالما سب أمير المؤمنين فى هذه الغرفة» وبقى طوال عمره مدافعا عن تشيعه مناضلا دون تحزبه حتى جل شعره الشيعى عن الإحصاء، فكان شعره هو حديثه وسمره، سئل مرة من أين وقع له التشيع؟ فقال «غاصت على الرحمة غوصا» ثم أنشد بعد ذلك شعراً.

حدث أحد رواة الشعر قال: «جمعت للسيد فى بنى هاشم ألفين وثلثمائة قصيدة، فخلت أن قد استوعبت شعره حتى جلس إلى يوما رجل ذو أطمار رثة

---

(١) الاباضية إحدى طوائف المسلمين الزائغة عن الهدى، خرجو على مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين وزعموا أن مخالفيهم من المسلمين كافرون، ولكنهم يجيزون الاصهار اليهم والارث عنهم، وأموال المسلمين حرام فى السلم حلال فى الحرب

فسمعنى أنشد شيئا من شعره ، فأنشدنى له ثلاث قصائد لم تكن عندى . فقلت فى نفسى لو كان هذا يعلم ماعندى كله ، ثم أنشدنى بعده ماليس عندى لكان عجيبا فكيف وهو لا يعلم : وإنما ينشد ماحضره وعرفت حينئذ أن شعره ليس مما يدرك ولا يمكن جمعه كله »

ولقد زعم عنه بعض عداته وهم كثر — أنه تحول عن مذهب الكيسانية(١) فى أخريات حياته إلى مذهب الجعفرية(٢) واستدل على ذلك بأبيات إليه منها:

أيا راكبا نحو المدينة جسرة   عذافرة تهوى بها كل سبسب
إذا ماهداك الله لاقيت جعفرا   فقل ياأمين الله وابن المهذب

وهذا زعم واهى الأساس منهار الأركان ، لأننا لانعرف له تحولا فى غير مذهبه الذى خالط لحمه ودمه حتى يتحول عنه ، ولو كان من اليسير انتقاله من نحلة إلى نحلة — لخضع لأبيه عند محاولته قسره على اعتناق مذهب الإباضية ، ولأنه لم يجد من الأسباب الحافزة مايدعوه إلى ترك رأيه القديم إذ يستوى لدى الخلفاء الذين ترهب إرادتهم المذهبان . ولعلهم كانوا أكثر خشية لمذهب الجعفرية منهم لمذهب الكيسانية ، هذا إلى أن راويتى شعر السيد أنكرا ذلك وجحداه

قال أبو داود سليمان بن سفيان المعروف بالخنزق وقد سئل عن هذا :

« مامضى والله إلا على مذهب الكيسانية ، وما ورد دليلا على تحوله متحول عليه منسوب له وهو منه برىء » وحدث راويته الثانى إسماعيل بن الساحر وقد نقل إليه بعد وفاة السيد أنه رجع عن مذهبه فى ابن الحنفية وقال

(١) الكيسانية فرقة من شيعة المسلمين زعيمها المختار بن أبى عبد الله الثقفى الذى ثأر للحسين رضى الله عنه ، أخذ مذهبه عن كيسان مولى أمير المؤمنين على رضى الله عنهما ، وقوام مذهبه أمران : إمامة محمد بن الحنفية ، وجواز البداء على الله عز وجل . ولها آراء لا يسيغها رأى ، فيزعمون ابن الحنفية حيا فى جبل رضوى ، ولديه عينا ماء ، وعسل يأكل منهما رزقه . وهو فى حراسة النمار ويبقى حيث هو حتى يخرج لهداية الناس ، فهو المهدى المنتظر ، وفى شعر السيد بعض هذا (٣) نسبة إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم قال أكثر الشيعة بامامته ولكنهم اختلفوا فى خلفه ؛

بإمامة جعفر بن محمد « والله مارجع عن ذلك ولا القصائد الجعفريات إلا منحولة قيلت بعده ، وآخر عهدى به قبل موته بثلاث وقد سمع رجلا يروى عن النبي ﷺ أنه قال لعلى عليه السلام « إنه سيولد لك بعدى ولد وقد نحلته اسمى وكنيتى ، فقال فى ذلك وهى آخر قصيدة قالها :

أشاقتك المنازل بعد هند وتربيها وذات الدل وعد
منازل أقفرت منهن محت منازلهن من سيل ورعد
وريح حرخف تستن فيها بسافى الترب تلحم ماتسدى
ألم يبلغك والأنباء تنمى مقـــال محمد فيما يؤدى
إلى ذى علمه الهادى على وخولة خادم فى البيت تردى
ألم تر أن خولة سوف تأتى بوارى الزند، صافى الخيم، نجد؟
يفوز بكنيتى واسمى لأنى نحلتهما والمهدى بعدى

ثم يشرح عقيب ذلك مذهب الكيسانية شرحا مستفيضا فى نسج مصقول وأسلوب سهل ، فكأنه خطيب يبين للناس تعاليمه ، ويفصل مبادئه ، ويتحدث عن آرائه، وهمه أن يكسب ثقة سامعيه وينال رضا حاضريه ، فيكاديلم بصغيرات عقائدهم كأن يقول :

يطيب عنهم حتى يقولوا تضمنه بطيبة بطن لحد
سنين وأشهرا ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعـــين وحفان تروح خلال ربد

وإنى إن شككت فى نسبة القصيدة إلى السيد — فشقى لا يعتورها شك فى أن هذا الحديث جملة وتفصيلا من وضع الشيعة لأسباب منها : أن السيد لم يترك كبيرة ولا صغيرة من أخبار أبى تراب إلا عرفها، حتى لقد روهن فى هذا فنال الرهان ، ولا يمكن أن ينتحل مذهبا لا يعرف تفاصيل سيرة صاحبه ، كما أن الرسول الكريم يتحدث عنه القرآن بقوله « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت

من الخير » فأنى له العلم أن عليا سيرزق ابنا إلا إذا جاء ذلك على سبيل الأمنية التى يرجى تحققها ، وما هذا الذى يدعيه السيد فاجرا فى دعواد ؟ إذ يرى أن هذا الذى نسب إلى رسول الله من التبشير بابن الحنفية بعض ما يجب على النبى الصادق الكريم أداؤه إذ يقول (مقال محمد فيما يؤدى) ؟

ومما يروى عن السيد فى سبيل الاستدال على إحاطته بحياة أمير المؤمنين على كرم الله وجهه — أنه راهن جماعة من أهل الكوفة على فرس له إذا ذكروا فضيلة لأمير المؤمنين لم ينشد فيها شعرا ، فصاروا يحدثونه فينشدهم حتى جاءه رجل منهم وقال : إن أمير المؤمنين عزم على الركوب فلبس ثيابه وأراد لبس الخفين فلبس أحدهما ثم أهوى إلى الآخر ليأخذه ؛ فانقض عقاب من السماء فخلق به ثم ألقاه ، فسقط منه أسود وانساب فدخل جحرا فلبس على رضى الله عنه الخف وما كان السيد فى حقيقة أمره،قال فى هذا الحادث شعرا ولعل له فى ذلك عذرا سنبينه بعد ، ولكنه أنشد دون ريث ولا توقف :

ألا ياقوم للعجب العجاب ... لخف أبى الحسين وللحباب
أتى خفاله وانساب فيه ... لينهش رجله منه بناب
فخر من السماء له عقاب ... من العقبان أو شبه العقاب
فطار به فخلق ثم أهوى ... به للأرض من دون السحاب
إلى جحر له فانساب فيه ... بعيد القعر لم يرتج ببناب

إلى آخر القصيدة ثم حرك جواده مزهوا معجبا ، وجعل للقصيدة بعد ذلك مطلعا هو :

صبوت إلى سليمى والرباب ... وما لأخى المشيب ولا التصابى ؟

وما عليه لو أنه جرى فى مطلعه على غير سنن شعراء ذلك العصر من الصبوة بالغيد والتحسر على الشباب الوئيد، ولا سيما أنه وفق فى مطلعه المرتجل إذ نبه إلى الصغى لذلك النبأ العجاب،يسقط العقاب على الحباب ، ومما يستوقفنى فى تلك القصيدة قوله :

فخر من السماء له عقـــاب من العقبان أو شبه العقاب

إنه يريد أن يزعم أن هذ الساقط من السماء ليس عقابا حقا، وإنما هو ملك جاء على صورته وشبهه ، وأؤكد أنه يقصد ذلك وليس ذلك عليه بعزيز ، ولعل هنالك من يحسن به الظن بعض الإحسان من ناحيته الدينية .فيرى أن استعصاء القافية هو الذى دفعه إلى هذه الشبهة ، وهو إذ يجهل تلك الواقعة معذور غير معذول ، فقد رويت عن رسول الله ﷺ ، وسواء أكان وقوعها لرسول الله أم لعلى . أم أنها موضوعة عليهما وهو ما يملأ نفسى ، فالقصة فى ذاتها دليل قوى على سرعة بديهته ، وتوقد قريحته ، وتدفق شاعريته

شغل السيد بهذا النوع من الشعر القصصى ، وبمدح ممزوج بالهجاء ،أو بهجاء مختلط بالمدح،عن بقية أغراض الشعر فى ذلك العصر ،ولولا غزل يقدمه بين غرضيه شأن شعراء عصره— لقلت إنه لم يشارك فى غيرهما من الفنون ، ولو قد فعل لكان له بين الشعراء على الرغم من عداته وحساده الأثر القوى المبين ، ولكن منزلته مع تقصيره وقصوره كانت مكينة ، وخطوته لدى أهل السلطان كريمة ، إما لرضاهم عنه وحدبهم عليه ، فهو لسانهم الجرىء ومقولهم الصوال ، وظهيرهم الجوال ، ينافح ويكافح ويصاول ويجادل فى قوة وصرامة ، وعنف وكرامة ، وإما لمداراتهم له ، وخشيتهم شره واتقائهم هجره ، فمن لم يسلم من عقرة لسانه أجلاء الصحابة وفضليات أمهات المسلمين — لا يعبأ من لا مقام له إلى جنب أولئك السادة الغرّ الميامين من صحابة الرسول يسرقهم بلسان صارم ويرزؤهم بشعر حاسم ؟ لذلك نلقى أحاديث شتى إن دلت على شىء فعلى ملق الناس له ، ومداهنتهم إياه، يستوى فى ذلك أحباؤه وأعداؤه. اللهم إلا المتزمتين من الفقهاء والمتأثمين من الأتقياء ممن خشى الله خشية أنسته نفسه ، وخاف بة خوفا ملك عليه حسه ، وهم قل منهم سوار بن عبد الله التميمى القاضى العادل، ومن يدرى ؟ فلعله لو عرف أن سيصيبه من إشهار أعدائه للسيد ما أصابه

لكان بعرضه من الناجين ، ولما عرض درعه للسانه ينال منه ، وعدله لشعره يعبث به ، ونسبه لتهكمه يتندر عليه ، ولكنه كان طيب السريرة فجنت عليه طيبته ، حسن السيرة فأساء السيد لدى الناس سيرته

دعى السيد إلى شهادة بين يدى ذلك القاضى فاستعفى داعيه فلم يعفه ، فبذل له المال استخلاصا لنفسه من الشهادة بين يدى من لا يثق بدينه فأباه ، وأصر على أن يؤدى الشهادة التى من يكتمها فإنه آثم قلبه ، فتقدم إلى سوار وجلا ، وشهد فقال له : ألست الحميرى ؟ قال بلى : قال القاضى : استغفر الله من ذنب تجرأت به على الشهادة عندى ، قم لا أرضى بك ، فقام من مجلسه محنقا ؛ إذ قد نال منه أى نيل دون أن يجترح إثما أو يجترم جرما ، وليس هو بالحصر العيى الذى يخنع لمساءة ، أو يرضى بعدوان ، ولا هو بالحليم الذى يغض عن سفاهة السفيه ، فكيف به يغض عن كلمة مصمية تصدر عن قاض لكلمته أعظم الأثر فى النفوس ؟ لقد سعى به فى شعره لدى المنصور — وهو عنده العزيز الأثير — دعا له ، ووصفه بالهدى والطاعة ، وبأنه يقود أمته إلى النجاة يوم العرض ثم نصحه بألا يستعين بسوار ، فهو رجل خبيث الرأى ظاهر الصلف ، كثير النقص ، عظيم البطش ، وما هذه بصفات قاض يوكل إليه الفصل فى قضايا المتقاضين ، وفيهم الضعيف لا يستطيع أن يرفع لديه طرفا ، والجبان لا يمكنه أن يقيم حجة أو ينطق حرفا ، على أنه لا يجدر بالقضاء ولا يستأهل هذه الصنيعة فهو ناشىء فى الصنعة ، وهذا بعض ما قال فيه يخاطب أولاد المنصور .

قل للإمام الذى ينجى بطاعته ... يوم القيامة من يحبوحة النار
لا تستعين «جزاك الله صالحة» ... «ياخير من دب» فى حكم بسوار
لا تستعين بخبيث الرأى ذى صلف ... جم العيوب عظيم الكبر جبار

تضحى الخصوم لديه من تجبره لا يرفعون لديه لحظ أبصار
تيها وكبرا ولو ما رفعت له من طبعه كان دون الجائع العارى

وكأنى بالقاضى الورع يهرول إلى الخليفة محنقا مغيظا، يستعديه على ذلك الفاجر الداعر، ينال من قاضى المسلمين ويذم عل أمير المؤمنين ، ولا يرضى دون حد القذف لذلك القاذف جزاء ، فيبتسم له المنصور حيث كان ينتظر أن يريد ، ويهش إذ هو يتوقع العبوس ، فيعرف أن شكواه لم تصل إلى قلب الخليفة إن كانت قد وصلت إلى أذنه ، وقد كان ذلك حقا فإن المنصور قال له : أما بلغك خبر إياس بن معاوية (١) حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد من الشهود ، فما أحرجك للتعرض للسيد ولسانه، ومن حقه حينذاك أن يرتب على كتفه مسترضيا بينا هو ينحى باللائمة عليه ، ويصفه بقلة الحنكة وعدم الدربة والقضاء يعوزه الحازم العازم والصارم العارم ، كما يعوزه كذلك الهين اللين الحول القلب ، وكأنى بالمنصور أقر السيد على شعره وأن صلف سوار وتيهه واعتزازه بمكانته من الخليفة هو الذى حمله على عدم المداراة ، وربما كانت قلة كياسته وسياسته هى التى عرضته لما نزل به ، ولو أنه تصرف تصرف إياس لأرضى العدالة ؛ ولنجا بالكياسة ، ولقد كان المنصور مع هذا الذى قال يؤثر سوارا بحبه ، ويمنحه أوفى قسط من تقديره ، فهو الوحيد الذى جمع بين الولاية والقضاء ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يؤيد حجة السيد عليه، بل قدح فيه حينما مدح القصور بقصيدة منها :

إن الإله الذى لاشىء يشبهه أعطاكم الملك للدنيا وللدين
أعطاكم الله ملكا لا زوال له حتى يقاد إليكم صاحب الصين
وصاحب الهند مأخوذا برمته وصاحب الترك محبوسا على هون

(١) إياس بن معاوية قوة المزنى البصرى كان نادرة فى الفطنه والذكاء حسن التصرف بارع التخلص صادق الفراسة ، رائع الكياسة تولى قضاء البصر فى عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وتوفى سنة ١٢٢ هـ

والمنصور متهلل جذلان ، ويلتفت إلى سوار بغتة وهو يعتقد أن فى مثل تهلله ، فإذا به مربد غيظا . فقال له مالك ؟ أرابك أمر ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين: هذا الرجل يعطيك من لسانه ماليس فى قلبه ، وإن الذين يواليهم لغيركم ، فقال المنصور مهلا : هذا شاعرنا ووليتنا ، وما عرفت منه إلا صدق محبة ، وإخلاص نية ، وأتيح الكلام للسيد ورأى السكوت فى مثل هذا الموقف حصرا وعيا فقال : ياأمير المؤمنين ،والله ماتحملت غضكم لأحد ، وما وجدت أبوى عليه فافتتنت بهما ، وما زلت مشهورا بموالاتكم فى أيام عدوكم . فقال المنصور صدقت ، فاسترسل قائلا : ولكن هذا وأهله أعداء الله ورسوله قديما ، والذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ، فنزل فيهم قوله تعالى « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » ولم ير أن يقف عند هذا بل قال فى ذمة من قصيدة « مدح بها المنصور » ما كان سوار عنه فى غنية تنقص فيها حسبه ونسبه،وطعن فى ولائه وإخلاصه ومنها :

ياأمين الله يامنصـــور ياخير الولاة
إن سوار بن عبد الله من شر القضاة
نعشلى جمـــلى لـكم غير موات
جده سارق عنز فجرة من فجرات
لرسول الله والقا ذفة بالمنكرات
وابن من كان ينادى من وراء الحجرات
مدحنا المدح ومن نر م يصب بالزفرات
فاكفنيه لا كفاه الله من شر الطارقات

ولعل القصيدة أكثر إقذاعا من هذا الذى روى ، ولكن تأثم الرواة دفعهم إلى أغفاله،فلقد شكا سوار السيد إلى المنصور فأمره أن يعتذر إليه فهو

قاضى المسلمين وفيصل الدين القويم ، ولكن سوارا عاوده الخطأ فرفض المعذرة فأنشد فيه :

أتيت دعى بنى العنبر أروم اعتذارا فلم أعذر
فقلت لنفسى وعاتبتها على اللؤم فى فعلها أقصرى
أيعتذر الحر مما أتى إلى رجل من بنى العنبر ؟
أبوك ابن سارق عنز النبى م وأمك بنت أبى جحدر
ونحن على رغمك الرافضو ن لأهل الضلالة والمنكر

وإن لمن الظريف فى هذه الأبيات قوله

أيعتذر الحر مما أتى إلى رجل من بنى العنبر

فكأنى بالسيد يخشى اتهامه بالرق ويرمى به الناس قبل أن يرميه به أحد فلقد كان أسود البشرة فيه كل صفات الأرقاء وسمات العبيد، حتى لقد تحدث هو عن ذلك فى شعره فقال يمازج زنجيا

أعارك يوم بعناه رباح مشافره وأنفك ذا القبيحا ؟
وكانت حصى إبطى منها ولونا حالكا أمسى فضوحا
فهل لك فى مبادلتك إبطى بأنفك تحمد البيع الربيحا؟

ولقد صدق من قال فى مثل السيد « رمتنى بدائها وانسلت » ويروى الرواة أن سوارا وقد ضاق بذلك « الحر » ذرعا ، ولم يعرف له من التخلص منه وزرا ؛ إذ شكاه إلى الخليفة فلم يسمح منه سوى اتهامه فى حكمته ، وأعاد الشكاة إليه فأنبه فى رفق ، وليس له بمساجلته السباب قدرة ، وهو كل يوم يأتيه من فحشه بجديد ؛ يرون أنه دبر مكيدة لقطع يديه منهما بالسرقة ، وأعد الشهود لإثبات التهمة ، فبلغت المكيدة السيد، فأبلغها المنصور ، فدعا سوارا . ورده عن الحكم للسيد أو عليه .

إنى أستبعد تلك الرواية بل أستنكرها، لأن سوارا قاض عرف بالنزاهة

فى الفعل والتأثم فى القول ، ومن يرفض شهادة شاهد لأنه لا يثق به دون أن يقيم الحجة على كذبه،لا يفتعل الزور ولا يدفع الناس إلى الوزر . وراوى ذلك الخبر صاحب الأغانى،وجدير به أن ينصف منصفى عثمان، فقد كان عثمانيا كسوار،وليس من إنصافه فى شىء اتهامه بتدبير المكائد ونصب الحبائل

ولندع سوارا وما نكبه به السيد من هجاء وبذاء غير جديرين برجل ثبت وقاض عدل . وإمام حجة ، ولنعرض لآراء الشعراء والرواة لمنزلته فى الشعر فحكمهم له أو عليه حكم الخبير البصير ، وسنترك من نعتقد أنه فى حكمه متحيف عليه،أو متحيز له، فما أحوجنا إليهما قلة حكام ، أو ضعف أحكام .

ذكر أحد الرواة أنه خرج إلى بادية البصرة فأنس به أهلها ، واستنشدوه فأنشدهم لذى الرمة وجرير والفرزدق فعرفوهم دون تعريف،ثم أنشدهم للسيد :

أتعرف رسما بالسويين قد دثر ... عفته أهاضيب السحائب والمطر؟
وجرت به الأذيال ريحان خلفة ... صبا ، ودبور بالعشيات والبكر
منازل قد كانت تكون بجوها ... هضيم الحشا ريا الشوى سحرها النظر
قطوف الخطا خمصانة بخترية ... كأن محياها سنا دارة القمر
رمتنى ببعد بعد قرب بها النوى ... فباتت ولما أقض من عبدة الوطر
ولما رأتنى خشية البين موجعا ... أكفكف منى أدمعا فيضها درر
أشارت بأطراف إلى ودمعها ... كنظم جمان خانة السلك فانتثر
وقد كنت مما أحدث البين حاذرا ... فلم يغن عنى منه خوفى والحذر

فجعل البداة يمرقون لإنشادى ويطربون ، وسألوا عن الشاعر فأعلمهم ، فقالوا هو والله أحد المطبوعين . لا والله مابقى فى هذا الزمان مثله .

وإن شاعرا يسمع هذا الشعر العذب ، والقصص السهل ، واللفظ الجزل ليعتقد أن منبعه ذلك المعين الغزلى، معين عمر بن أبى ربيعة ،فهو بشعره أشبه ، فلو أن السيد شارك فى جميع فنون الشعر لأتى بالعجب العجاب ، ولأسقانا

النطف العذاب،ولبذ لذاته،وقهر عداته ، ولقد حمد الشعراء ربهم أن ترك لهم أغراضهم .

روى عن الفرزدق أنه قال : إن هاهنا لرجلين لو أخذا فى معنى الناس لما كنا معهما فى شىء ، فسئل عنهما فقال : السيد الحميرى وعمران بن حطان السدوسى،ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول فى مذهبه .

وهذا بشار زعيم المحدثين وإمام المولدين،يشهد للسيد شهادة الرجل العظيم لا ينكر على غيره عظمته،لأن سناءه وشرفه يمنعانه أن يبخس الناس أشياءهم ، فقد وقف السيد على بشار وهو ينشد مادحا فأقبل عليه وقال له :

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج نفع المنزل العواد
لاتقل فى الجواد ماليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

فسأل بشار عنه فقيل له، هذا السيد الحميرى فقال : لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بنى هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا فى مذهبنا لأتعبنا .

تلك شهادة الشعراء فيه، يحمدون الله أن صرفه عن مجاراتهم فى بحورهم ومساجلتهم فى فنونهم،أما الرواة فقد كانوا عليه قساة مبغضين،يقلونه جهارا ويستطيبون قوله إسرارا ؛ رأى الأصمعى جزءا من شعر السيد فسأله عنه فستردونه لكراهيته إياه ، فأقسم على من معه الشعر أن يخبره حقيقة الشعر والشاعر،فأخبره فاستنشده قصيدة وقصيدة وثالثة ورابعة وهو يستزيده ثم قال : قبحه الله ما أسلكه لطريق الفحول ، لولا مذهبه ولولا مافى شعره ماقدمت عليه أحدا من طبقته .

وروى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى وحكمه لا يقل عدالة وإنصافا عن حكم الأصمعى؛وعلمه بلسان العرب علم ذى البصر والبصيرة ، روى عنه أن صديقا زاره وعنده أحد بنى هاشم يقرأ عليه كتابا فلما رآه أطبقه ، فقال له

أبو عبيدة،اقرأ فإن صاحبنا ليس ممن يحتشم منه ، فأخذ يقرأ فإذا هو شعر السيد،وأبو عبيدة معجب به مستحسن له ثم قال : « السيد الحميرى وبشار بن برد أشعر المحدثين » .

وشهادة هذين فصل الخطاب ؛ فقد اجتمع لها ما لم يجتمع لغيرهما حدة ذهن ، وحديد بصر ، وسعة علم ، وصحة حكم ، فإذا حكما لشاعر أو عليه فلا معقب لحكمهما ولا راد لقضائهما ، ولا سيما إذا كان المحكوم له ممن أبغضه العامة ، وقلاه أكثر الخاصة ، فليهنأ السيد بحكمهما الخالد .

وإنى لأرجو أن أكون قد عرضت حياة ذلك الشاعر وشعره عرضا يرضى الأدب ويسعد الأديب، كما يرضى الورَع ويسعد الورِع ، فإن أكن قد نلت ما أردت فلله الحمد ، وإن أكن قد قصرت فلى من الأدباء الغفر ، ولى من السيد على كل حال الشكر،فقد أحييت سيرته،وأشدت بشاعريته بعد أن طوى عبقريته النسيان .

عبد المنعم على قناوى